أدبنا بين نهضتين

بقلم رشيف خوري

سار الادب العربي سيرة بعيدة الانفساح في الزمان والمكان: اربعة عشر قرنا بدأت منذ القرن السادس الميلادي في شبه الجزيرة العربية واستمرت الى القرن العشرين ممتدة في آسيا وافريقيا واوروبا ، وستستمر ما استقام للعرب وجود تحت الشمس .

ولقد كان طبيعيا في اثناء تلك السيرة الطويلة ان تتعاقب في الادب العربي عوامل القوة والضعف، والازدهار والذبول ، فينهض في عهود وينحط في عهود . واما عهود الانحطاط فقليلا ما نكلف بالحديث عنها ، واما عهود النهضة، فلا شك ان ابرزها واخصبها تلك التي عرفها الادب العربي في زمن العباسيين ثم في عصرنا الحاضر بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين . وليس اقرب الى العقل من ان يغرى الناظرون في الادب العربي بالمقابلة والمفاضلة بين هاتين النهضتين : العباسية والحديثة .

على ان مثل هذه المقابلة والمفاضلة تستلزم مقدمات رأسها النظر في الاحوال المحيطة بالنهضتين لما يزيدنا ذلك من قدرة على فهم النهضتين والاسباب الفاعلة فيهما والافاق التي اتجه كل من النهضتين شطرها واتسع فيها او وقف عند حد محدود .

يوم ان نهض الادب العربي نهضته في زمن العباسيين كان العرب شعبا قويا سيد دولة مستقلة ضخمة . ولم يكن هذا الشعب قد رزح تحت نير الاجنبي ، او فقد سيادته على نفسه ، لا في دولة بني امية ولا في دولة الراشدين حين كانت السلطة خالصة له ، ولا في الجاهلية حين كان لهذا الشعب من صحرائه معقل منيع يستعصي على غزو وفتح ثابتين . وفوق ذلك ، كان العرب في زمن العباسيين اصحاب لغة تتكلمها وتكتب بها كثرة من شعوب الارض ، اما لانها لغة الدولة ولغة الدين ولغة الجنس ،او لانها لغة ارقى واغنى من التي عارضتها كالسريانية، والفارسية ، والفهلوية ، والتركية . وكل هذا اورث العرب في زمن العباسيين ، والامويين من قبلهم ، شعورا زهوا بلغتهم وادبهم . واتت حملات الشعوبية على العرب دافعة الى المزيد من هذا الزهو بحكم قانون رد الفعل . واقفرت خزائن السريانية والفهلوية ، والتركية ، من آثار محض ادبية يمكنها ان تبهر وتروع، وحال الطابع الوثني بين الاداب اليونانية والعرب الذين سادهم الاسلام فلم تنشرح لتلك الاداب صدورهم . وانما نذكر هذا لنبين ان العرب يوم نهض ادبهم نهضته العباسية كانت تغلب عليهم روح الاكتفاء والاستغناء بلغتهم وادبهم ، تلك الروح التي عبر عنها الجاحظ بقوله : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب » .

ولكن يوم نهض الادب العربي نهضته الحديثة كان العرب شعبا مستضعفا قد حمل النير الاجنبي طويلا واشتدت عزلة بعضه عن بعض ، وعظم التفاوت في مستوى تطوره بين قطر وآخر من اقطاره ، وضعفت عنده ملكة الفصحى ، وضاقت رقعة المتكلمين بالعربية ، وتقلص التعليم ،وشعر المدركون من ابناء الشعب العربي بنقص لا يمكن تجاهله في ادبهم ، وزادهم بهذا النقص شعورا جهلهم اول الامر بذخائر ادبهم القديم ، ثم اطلاعهم على كنوز من آداب الامم الاوروبية خليقة بأن تبهر وتروع، كما لم تكن خليقة بأن تبهر وتروع تلك النماذج الادبية التي احتوتها خزائن السريانية والفهلوية والتركية ، وهي الى الفقر ادنى منها الى الغنى.

وكل هذا ربما اوهم ان الاحوال التي احاطت بالنهضة العباسية كانت جميعها مؤاتية تتيح لتلك النهضة مبلغا من العمق والانتشار لا يتاح للنهضة الحديثة بسبب ما احاط بها من اهوال مشاكسة معاندة .

غير ان الواقع ان النهضة العباسية كانت محدودة بحدود زمانها . فالنشر الادبي ايام العباسيين كان اما بطريق التلاوة او السفر المخطوط . وكان عدد القارئين ضئيلا ، وعدد الملمين باللغات الاجنبية اضأل . فضلا عن ان المجتمع كان فيه رقيق كثير ، الى اقطاعية عارمة النفوذ ، في دولة يدين ولاتها بالحكم المطلق ، وتضطهد من لا يتملقها لا فرق بين ان يكون من المسلمين او غير المسلمين من اهل الاديان التي عايشها الاسلام نفسه برحابة تدعو الى الاعجاب . ولا شك ان روح الاسلام قد عملت على التلطيف من شر هذه الافات التي شابت المجتمع العباسي ، ولكن الافات بقيت قائمة وطغت في احيان على الروح المستنيرة التي اتسم بها الاسلام الاصيل .

ينتج من هذا كله ان تفاعل الادب مع الشعب كان ضعيفا في المجتمع العباسي ، وكان اكثر اعتماد الاديب في رزقه على ما يتكسب بأدبه من رجال دولة يفهمون السلطة فردية والحكم وراثيا مطلقا . ومن هنا قويت صبغة التشاؤم في الادب القديم ، وضعفت نبرة التفاؤل ، وعمت الشكوى من عمى الاقدار وظلم الدهر وغباوة الايام ... وبرغم بعض مظاهر الحس القومي والشعور الوطني التي نلمسها في الصراع بين الشعوبية والعروبية كانت الرابطة القومية والوطنية بعيدة عن ان تكون هي السائدة في اعصر العباسيين .

وان نظرة سريعة الى الاحوال التي احاطت بالنهضة

الحديثة في مقابل هذه الاحوال التي احاطت بالادب العباسي، لتثبت ان النهضة الحديثة كانت من هذا الوجه اسعد حظا . فنحن اليوم لا نكتفي بنشر الادب كتبا مخطوطة ، وانما ننشره كتبا وصحفا ومجلات يبلغ عدد نسخها الالوف وعشرات الالوف ولا يتعذر اقتناؤها على الجمهور. ونحن اليوم اقل اعتمادا على الدولة في رزقنا ، ولا نطيق منها ما كان يطيقه اسلافنا من التصرف الكيفي المطلق . ننقد الدولة ونخالفها في الرأي ، وتتسع القوانين لان ننقدها ونستقل بالرأي . ونحن نصدر اليوم فيما نكتب وننشر عن حس قومي وشعور وطني اقوى واعمق ، فضلا عن ان حظ الجمهور من العلم واقباله على المطالعة اعظم بما لا يقاس . ومعرفتنا باللغات الاجنبية اوسع وارسخ .

وعلى الجملة فالادب اليوم اصبح اشد تفاعلا مع الشعب اخذا وعطاء عن وعي وقصد ، واصبحت لعمل الاديب وشخصيته صفة اجتماعية ، لم تكن من قبل بمثل هذا القدر من الوضوح لا عند الاديب ولا عند الجمهور .

ما من شك ان النهضة العباسية طورت الادب العربي شعرا وطورته نثرا .

يكفي ان نذكر في الشعر تلك الخمريات النواسية التي امتازت برونق فن ولطف روح حببها الى الذوق في كل عصر وضمنا لها سحرا واغراء لا تنال منهما حتى الترجمة، فاذا الاجنبي يحس كما يحس العربي جمال هذا القول :

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها
بالرطل ، يأخذ منها ملئه ذهبا
قصرت بالراح فاحذر ان تسمعها
فيحلف الكرم ان لا يحمل العنبا !

بل يكفي ان نذكر تلك التأملات المتنبئية والمعرية التي انطلقت بالشعر العربي من خلجان محصورة الى بحار انسانية واسعة . اليس المتنبي هو صاحب هذا التمثيل البليغ لقلق النفس الانسانية وتحديها للظلم :

واني لمن قوم كأن نفوسهم ... بها انف ان تسكن اللحم والعظما
كذا انا يا دنيا،اذا شئت فاذهبي ... ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ، ... ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما !

اليس المعري هو صاحب هذا التصوير الرائع لمأساة انسانية تصطرع اصطراعا احمق وقد كتب عليها الموت :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الاضداد !

بل يكفي ان نقف عند هذا التجديد الذي ادخلته الاعصر العباسية على العبارة الشعرية والتخيل والوصف الشعريين، كما يتجلى في هذه الابيات لابن الرومي يرسم بها لوحة تفيض حياة لقيان مبدعات في العزف والغناء :

وقيان كأنها أمهات ، ... عاطفات على بنيها ، حوان
مطفلات ، وما حملن جنينا ، ... مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات اطفالهن ثديا ... ناهدات كاحسن الرمان
كل طفل يدعى باسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
امه دهرها تترجم عنه ... وهو بادي الغنى عن الترجمان
ذات صوت تهزه كيف شاءت ... مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه ... في تثنيه مثل حب الجمان !

غير ان الواقع ان يد النهضة العباسية على النثر كانت اعظم منها على الشعر . فمع النهضة العباسية استقام النثر العربي الكتابي ، وتشعبت فنونه ، واثمر كل فن ثمارا موفورة يانعة . فقرأنا خواطر في الاخلاق وامثالا غنية بالتجارب لابن المقفع . وقرأنا قصصا ونوادر نابضة حية للجاحظ وابي الفرج الاصفهاني ، كما قرأنا صفحات بعيدة المرامي فنية السخر للمعري ، وفصولا ممتازة في التاريخ والسيرة للمسعودي والاصفهاني ، وصفحات تحرق النفس والفكر للغزالي ، وابحاثا معمقة في النقد الجمالي الادبي لعبد القاهر الجرجاني ، وروايات مطولة تجمع بين التشويق والعبرة في الف ليلة وليلة وقصة عنترة . ولم اعد ما عددت الا على سبيل المثل لا الحصر .

لكن تبقى الحقيقة التي لا مراء فيها ان النهضة العباسية تركت الادب العربي وهو مفتقر شعرا ونثرا الى الكثير من الفنون المكملة للادب . وبذلك كانت النهضة الحديثة اشد تخصيبا للادب العربي واوسع تفريعا لفنونه ، فظهرت فيه مظاهر جديدة لم يسبق له بها عهد . فوجدنا من الشعراء العصريين من نظم المطولات القصصية على نسق الملاحم (خليل مطران في الجنين الشهيد ونيرون) ووجدنا من نظم المطولات التأملية الفلسفية (ايليا ابو ماضي في الطلاسم)، ونظم التمثيليات (احمد شوقي) . كما رأينا من اجتهد في كسر القوالب الشعرية ، لابتداع قوالب شعرية لا تلتزم وزنا او قافية (امين الريحاني في شعره المنثور وجبران في نثره الشعري) .

كذلك رأينا من الكتاب العصريين من الف التمثيليات نثرا، او استحدث قصصا قصارا ، او روايات مطولة ،موضوعة او تاريخية . ورأينا من انشأ الابحاث السياسية والاجتماعية ودراسات النقد الادبي . ولا حاجة الى تعداد اسماء الكتاب فانها معروفة في غنى عن التنويه بها.. وفي هذه الفنون كلها كان كتاب النهضة الحديثة آخذين بحظ قليل او كثير من

صدر حديثا

فصول سياسية

دراسات عميقة في المشكلات السياسية المعاصرة في العالم العربي

تأليف

خلدون ساطع الحصري

التجديد . الا انه تجديد على كل حال،وان اختلف باختلاف المرحلة التي كتبوا فيها ، وبتفاوت استعدادهم وثقافتهم تفاوتا مكنهم فى احيان من ان يدخلوا فى افاق بكر ، وسواء أكان ذلك من جهة الموضوع و جهة التعبير والاسلوب .

وانما تركت النهضة العباسية الادب العربي وهو مفتقر الى كثير من الفنون المكملة للادب لان التفاعل الذي احدثته هذه النهضة بين الادب العربي واداب الامم الاخرى ظل ضعيفا . ولقد كان اشد تفاعل العباسيين مع الفلسفات والعلوم الدخيلة ، ترجموها او قبسوها عن الامم الاخرى،ثم ولدوا فيها وابتكروا مقيدين بحدود زمانهم .

والحق اننا اذا التمسنا الميزة التي امتازت بها النهضة الحديثة على النهضة العباسية وجدناها ترجع بالدرجة الاولى الى ان النهضة الحديثة باتت اوسع تفتحا على آداب الامم الاخرى ، ولا سيما الاوروبية ، واعمق تفاعلا معها .

يضاف الى ذلك امر آخر له اهميته التي لا يصح اغفالها: ان ادب النهضة الحديثة أوثق تفاعلا مع الشعب، وتحسسا من مشاكل المجتمع ، واقوى انطباعا بالروح القومي والوطني، واشد شغفا بتأمل الطبيعة ، وتلمس اسرارها وتذوق جمالها، وهو أكثر اخذا بالمفاهيم المستقلة عن الدينيات والغيبيات ، يهتم للمواطن والانسان من جهة كونه ومصيره على هذه الارض اهتمامه له من جهة مصيره في عالم اخر .

وهنا قد يلحظ ان النهضة العباسية كانت اوفر عطاء ادبيا فى الكمية واحيانا فى اصالة التعبير ومتانته. لكن هل يجوز لنا ان ننسى ان النهضة العباسية اتيح لها ان تتحرك في مدى من الزمن يبلغ القرون الطوال ، كانت فيها العربية اعز شأنا بينما النهضة الحديثة لم تكد تنطلق الا منذ قرن ، وفي ظل السيطرة الاجنبية او في ارض غريبة لم تتأصل فيها جذورها. ولذلك نراها قد عانت تقلصا في بعض النواحي. اللغات الاجنبية وآدابها تنافس اللغة العربية وادبها في عقر دارها . والتمثيل تقهقر بعد نشأة كان يرجى منها الخير ، ولن يعود الى الازدهار الا بعد تشجيع الحكومات له بتيسير وسائله التي تمكنه من الصمود لمزاحمة السينما ، والادب العربي في المهاجر يصير الى انقراض بتلاشي الجيل الذي هاجر من الادباء وباكتساب ابناء المهاجرين لغة البلاد التي توطنوها .

يمكن القول ان النهضة الحديثة في الادب العربي ما زالت في مرحلتها الاولى . ولن تدخل في مرحلتها الثانية ، مكملة سيرتها وازهارها ، الا بعد ان يتم تحرر البلاد العربية . وعندئذ يتاح لنا ان نقابل ونفاضل بين النهضتين العباسية والحديثة بقدر من الانصاف اوفر .

لنا حين نلتفت الى عصور الزهو فى الماضي ما يدعو الى الاعتزاز والتفاؤل .

ولكن حين نتأمل الحاضر والمستقبل لا نجد سبيلا لان يسحقنا التشاؤم والشعور بالضعة .

رئيف خوري

امنية

دعاه منادي الجهاد فلبّى
ومنذا يخيّب داعي الجهاد ؟

قضى جده فى غمار الكفاح
ومات ابوه فداء البلاد

فشبّ وفي نفسه ثورة
على الظلم تكمن تحت الرماد

يزيد مداها تمادي الدخيل
ويذكي لظاها انتشار الفساد

***

وعاش الفتى في رعاية امّ
تحدّث لعينيه جور القضاء

تجوع لتدرأ عنه الهوان
وتشقى لتدفع عنه الشقاء

تقيه العثار باهدابها
وتخشى عليه هبوب الهواء

فكانت عليه جناح الاله
وكان لديها مناط الرجاء

***

ولما دعاه النفير احسّت
كأنّ الرداء عليها كفن

ولكنها احتبست دمعها
مخافة يسري اليه الوهن

وقالت ــ وقد لامها اللائمون ــ
لعينيّ بلادي يهون الثمن

لقد حقق الله امنيّتي
يموت وحيدي ويحيا الوطن

الارجنتين **زكي قنصل**